

١٠ العارفون ملأ تعالیٰ



إِذَا حَلََّ الْهَمُّ، وَخَيَّمَ الْغَمُ، وَاشْتَدَ الْكَرْبُ، وَعَظُمَ الْخَطْبُ، وَضَاقَ السَّبِيلُ، وَبَارَتِ
الْحِيلُ، نَادَى الْمَنَادِيُّ: يَا إِلَهُ.. يَا إِلَهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْ ربِ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْ ربِ السَّمَاوَاتِ وَربِ الْأَرْضِ وَربِ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)، فَيَدْفَرُّ حَاجَةَ
الْهَمِّ، وَيُنَفِّسُ الْكَرْبَ، وَيُذْلِلُ الصَّعبَ (فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَزَجَّبْنَاهُ مِنَ
الْغَمِّ وَكَذَلِكَ زُجْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الْأَنْبِيَاءُ / 88)، (وَمَا يَكُونُ مِنَ
نَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ شُئْمٌ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)
(النَّحْلُ / 53). "إِذَا أَجْدَبَتِ الْأَرْضُ، وَمَاتَ الزَّرْعُ، وَجَفَ الْبَرْصُ، وَذَبَّلَتِ الْأَزْهَارُ وَذَوَتِ الْأَشْجَارُ،
وَغَارَ الْمَاءُ، وَقَلَ الْغَذَاءُ، وَاشْتَدَ الْبَلَاءُ، خَرَجَ الْمُسْتَغْيَثُونَ بِالشَّيْوخِ الرُّكَّاعِ، وَالْأَطْفَالُ
الرُّضَّاعُ، وَالْبَهَائِمُ الرُّتْبَاعُ، فَنَادُوا: يَا إِلَهُ، وَاسْتَغْاثُوا: يَا إِلَهُ، فَيَنْزِلُ الْمَطَرُ، وَيَنْهَمِرُ
الْغَيْثُ، وَيَذْهَبُ الطَّمَأُ، وَتَرْتُويُ الْأَرْضُ، (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَزْلَدْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهْيجٍ)
(الْحُجَّ / 5)، وَإِذَا بِالْمَاءِ يَرُوِيُّ مِنَ الْعَطْشِ، وَيُنَقِّيُّ مِنَ الدِّنْسِ. "إِذَا اشْتَدَ الْمَرْضُ
بِالْمَرِيضِ، وَضَعَفَ جَسْمُهُ، وَشَبَّ لَوْنَهُ، وَقَلَتْ حِيلَتُهُ، وَضَعَفَتْ وَسِيلَتُهُ، وَعَجزَ الطَّبِيبُ، وَحَارَ الْمَدَاوِيُّ،
وَجَزَعَتِ النَّفْسُ وَرَجَفَتِ الْيَدُ، وَجَفَ الْقَلْبُ. انْطَرَحَ الْمَرِيضُ، وَاتَّجَهَ الْعَلِيلُ إِلَى الْعَلِيِّ الْجَلِيلِ،
وَنَادَى: يَا إِلَهُ.. يَا إِلَهُ، فَزَالَ الدَّاءُ" وَدَبَ الشَّفَاءُ وَسُمِعَ الدُّعَاءُ (وَأَيُّوبَ إِذْ رَأَدَ رَبَّهُ أَنَّهُ مَسَّهُ ذَيِّ الْضُّرِّ وَأَرْتَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا

لَاهُ فَكَسَّفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرُّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَذْلَهُمْ مَعَهُمْ رَجْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكْرَى لِتَعَابِدِينَ) (الأنبياء/ 83-84). "إذا انطلقت السفينة بعيداً في البحر اللجي، وهبت الزوايا، وتساقطت الرياح، وتلبد الفضاء بالسحب، واكهر وجه السماء، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولعبت الأمواج بالسفينة، وبلغت القلوب الحناجر، وأشرفت على الغرق، وتربيص الموت بالركاب، اتجهت الأفئدة، وجارت الأصوات: يا آه.. يا آه، فجاء عطفه، وأشرق ضياؤه في الطلام الحالك، فأزال المهالك": (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُ كُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرْيَ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَانُوا أَزْهُمْ أُخْرِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَرْجَيْتَهُمْ لَهُمْ لَذَكْرُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَرْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَأْتُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِرْيَ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغْيِيُكُمْ عَلَى أَرْفُوسِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُذَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (يوحنا/ 22-23)، (قول مَنْ يُذَاجِرُ يِكُمْ مِنْ طُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرِّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَرْجَاهَا مِنْ هَذِهِ لَذَكْرُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُذَاجِرُ يِكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبِ ثُمَّ أَرْتُمْ تُشْرِكُونَ) (الأنعام/ 63-64). "إذا حلقت الطائرة في الأفق البعيد، وكانت معلقة بين السماء والأرض فأشر مُؤشر الخلل، وظهرت دلائل العطل، فذعر القائد، وارتبك الركاب، وضخت الأصوات، فبكى الرجال، وصاح النساء، وفوجئ الأطفال، وعم الرعب، وخيم الهلع، وعظم الفزع، ألحّوا في النداء، وعظم الدعاء: يا آه.. يا آه.. يا آه، فأتى لطفه، وتنزلت رحمته، وعظمت مِنْتَدُه، فهدأت القلوب، وسكنت النفوس، وهبطت الطائرة بسلام". "إذا اعترض الجنين في بطن أمه، وعسرت ولادته، وصعبت وفادته، وأوشكت الألم على الهاك، وأيقنت بالممات، لجأت إلى منفس الكربات، وقاصر الحاجات، ونادت: يا آه.. يا آه، فزال أنيتها، وخرج جنينها". إذا حللت بالعالم معضلة، وأشكلت عليه مسألة، فتاه عنده الصواب، وعز عليه الجواب، مرغ أنفه بالتراب، ونادى: يا آه.. يا آه، يا معلم إبراهيم علمني، يا مفهم سليمان فهمني، "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقائق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"، فيأتي التوفيق وتحل المغاليق. " فهو تعالى الملاد في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة. يتوجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء.

ويدعوه آملاً في الشفاء". ويتجه إِلَيْه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت، والعوض من كل مفقود، (إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَاتُوا إِنَّمَا لَتَّهُ وَإِنَّمَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/ 156). ويتجه إِلَيْه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على طالمه، فليس بين دعوة المظلوم وبين إِنْ حجاب، (أَنَّمِّي مَغْلُوبٌ فَما زَتَّ صَرِيرٌ) (القمر/ 10). ويتجه إِلَيْه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة، (رَبِّ إِنَّمَا وَهَنَ الْعَظُمُ مِنْهُ يَوْمَ أَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَامُ أَكْنَ بِدْءَعَائِكَ رَبِّ شَقِيقًا * وَإِنَّمَا خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ أَمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَّا * يَمْرِثُنِي وَيَمْرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيقًا * يَمْرِثُنِي زَكَرِيَّا إِنَّمَا زُبَدَشَرُكَ بِغُلامَ اسْمُهُ يَحْيَى لَامُ زَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلِ سَمِيقًا) (مريم/ 4-10). وكل واحد من هؤلاء آمل في أن يُحابِّ إِلَى ما طلب، ويتحقق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة إِنْ ببعيد وما ذلك على إِنْ بعزيز، أي سكينة يشعر بها المؤمن حين يلْجأ إِلَى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة. فيدعوه بما دعا به محمد (ص) من قبل: "اللهم رب السماوات السبع، رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى. منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعود بك من شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها أنت الأول، فليس قبلك شيء. وأنت آخر فليس بعده شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، أقصر عني الدين، وأغنني من الفقر". فهو سلوة الطائعين، ولد الهاربين، وملجأ الخائفين، قال أبو بكر الكتاني: "جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة. فتكلم الشیوخ فيها. وكان الجنید - رحمه الله - أصغرهم سنًا. فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق ساعة، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذا هب عن نفسه، ومتصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إِلَيْه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبيته، وصفا شريه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم: فباء. وإن نطق: فعن إِنْ. وإن عمل: فبأمر الله. وإن سكن: فمع الله. فهو الله، وبه الله، ومع الله، فبكى الشیوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد. جبرك الله يا تاج العارفين". إِلَيْه وإن لا تُشدُّ الركائب *** ومنه وإن لا فالمؤمن لخائب وفيه وإن لا فالغرام مُضيءٌ عنه وإن لا فالحمد لـ كاذب من علق نفسه بمعرفة غير معروف الله فرجاؤه خائب، ومن حدث نفسه بكفاية غير كافية الله فحديثه كاذب، لا يغيب عن علمه غائب، ولا يعزب عن نظره عازب، (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس/ 61). المصدر: كتاب الله أهل الثناء والمجد